المسلمون فى روسيا كما رأيتهم

بقلم الصحفى الفرنسى
ادوار دسابليه

من بلاد العرب انبعث نورالاسلام وامتد الى اقصى بلادالارض فى الشرق وفى الغرب .

وقد ظلت معلوماتنا عن المسلمين فى الاتحاد السوفيتى محدودة حتى تفتحت ابواب روسيا فى الاعوام الاخيرة للباحثين والزوار .

وقد امضى ادوار سابليه المحرر السياسى لأوسع الجرائد الفرنسية نفوذا « لموند » قرابة شهرين فى الاتحاد السوفيتى كتب فيهما لجريدته سلسلة مقالات عن المسلمين هناك .

ولا غرابة اذا اهتم الفرنسيون بالاسلام فهو العامل الاول الذى يصعب عليهم حكم مستعمراتهم التى يدين معظم سكانها بهذا الدين .

ونظرا لما احتوته هذه المقالات من معلومات طريفة وملاحظات مدققة فقد راينا تقديمها تباعا على هذه الصفحة الاسبوعية الى قراء القاهرة .

كتب سابليه :

الامبراطورية الاسلامية

كان الاسلام يظهر حتى نهاية الحرب الأخيرة فى مصوراتنا الجغرافية شركة مقسمة بين مختلف الدول الاوربية العظمى ، فقد كان المسلمون من المحيط الاطلنطى الى بحر اليابان يعيشون فى أراض مترامية شاسعة ، ويقرب تعدادهم من اربعمائة مليون نسمة ، كانوا جميعا خاضعين طواعية او كرها لوصاية الاجنبى .

ومنذ ذلك العهد حدثت ثورة حقيقية فقد تخلت ايطاليا وهولندا وبريطانيا عن ممتلكاتها الاسلامية واليوم تعانى فرنسا الامرين من حربها للمحافظة على ممتلكاتها الاسلامية ، وتقف فى صراع لا يعلم الا الله كيف ولا متى ينتهى .

بعد هذا لم يعد من الامبراطورية الاسلامية الواقعة تحت وصاية الاغراب الا امبراطورية واحدة ونعنى بها امبراطورية الاتحاد السوفيتى التى حلت فيها المطرقة والمنجل مكان الهلال الاخضر .

وارض الاسلام فى نظر الروس الذين يشرفون عليها تعد ذات أهمية قصوى ، ولعله من العسير أن نحدد بالضبط تعداد المسلمين داخل الحدود السوفيتية ، اذ أن الاحصائية الوحيدة التى يمكن الاستناد اليها ترجع الى عهد القياصرة عام ١٨٩٧ ، وقد دلت وقتذاك على وجود نحو خمسة عشر مليون من المسلمين ، ثم اندلعت نيران الثورة البلشفية فلم تعد الاديان عناصر مميزة بين السكان ، اذ اجريت احصائيات بعد ذلك خلال عامى ١٩٢٦ ، ١٩٣٩ فلم يراع الدين فيها وانما روعيت التبعية العنصرية ، واتضح من هاتين الاحصائيتين أن عدد المسلمين قد صار على التوالى ١٨ ، ٢١ مليونا فى مختلف أنحاء الامبراطورية السوفيتية .

على هذا الاساس ، وعلى هدى هذه الاحصائيات يسود الاعتقاد بان عدد المسلمين فى الوقت الحاضر – ١٩٥٧ – يبلغ نحو ٢٥ مليون نسمة ، اى بعبارة اخرى تبلغ نسبتهم ١٢ فى المائة من مجموع عدد الرعايا السوفيت .

هؤلاء السكان المسلمون يعدون فى نظر المسئولين الروس مشكلة دقيقة قائمة بذاتها ، اذ أن هؤلاء يعيشون جلهم ، ان لم يكن كلهم على الحدود الفاصلة بين آسيا الوسطى والقوقاز من ناحية ، وبين الهندوباكستان وافغانستان وايران من ناحية اخرى ، وهم يكونون جماعات متجانسة ذات صلة بالعالم الخارجى منذ عهد بعيد وتربطهم بسائر المسلمين الذين يعيشون فيما وراء الحدود اواصر تقليدية ودينية وتاريخية .. وعلى هذا الاساس كان المسلمون ، شأنهم فى ذلك شأن اليهود والكاثوليك ، مضطهدين فى عهد القياصرة ، الى أن اشتعلت الثورة الروسية فأصبح هؤلاء جميعا تحت مراقبة دقيقة من السلطات الثورية .

فمن ناحية الجنس واللغة والدين يعتبر سكان الاتحاد السوفيتى اخوة للمسلمين الذين يعيشون فى الاراضى المجاورة ، وهم الى جانب ذلك ينتمون – أربعة أخماسهم – الى العنصر الطورانى كالاتراك العثمانيين ، الخمس الباقى اما من الايرانيين اما من (التاديجيك) كأهل افغانستان سواء بسواء .

والى جانب اولئك وهؤلاء توجد قلة تنتمى الى اصل مغولى ، او صينى ، ويتضح من ذلك انهم يتصلون بروابط وثيقة بسائر السكان المسلمين الذين يعيشون وراء الحدود المجاورة .

هذا الى أن الاراضى الاسلامية حوى فى باطنها ثروات ضخمة على رأسها الذهب الاسود الذى يبدو كما لو كان هبة من الله الى عباده ، تاهيك عن القطن ومناجم الفحم والرصاص وغير ذلك من المساحات الشاسعة من الاراضى البكر التى ما زالت تنتظر يد الاصلاح لتزدهر وتنبت نباتا حسنا .

تراث القياصرة

ورث السوفيت عن القياصرة الروس متاعبهم ومشاكلهم الناجمة عن الخوف والحذر من الشعوب الاسلامية المجاورة لحدود بلادهم من آسيا ، ونعنى بهم التتار والمغول ، وكانت نهاية المطاف من صراع الجبابرة ، استيلاء الروس على مدينة (سمرقند) والانتقام من احفاد (تيمورلنك) الذين احرق جدهم الاكبر مدينة موسكو فى الماضى ، واعتبر الاتحاد السوفيتى الشعوب الاسلامية التى تعيش فى أراضيه بمثابة غطاء عسكرى استراتيجى يحمى حدوده الجنوبية من آسيا ، الى أن تطورت السياسة الروسية خلال القرن الماضى عندما اخذت جحافل الروس تنطلق نحو المحيط الهادى والقوقاز بينما كانت الدبلوماسية القيصرية تعمل جاهدة لتنتزع من بريطانيا الامارات الواقعة فى شمال الهند .

فلا زالت الادارة السوفيتية فى مدن هذه المناطق تتسم بطابع المركزية ، وترسل حكومة موسكو الى هذه الجهات كثيرا من أبناء روسيا للاقامة فيها وذلك بغية تحقيق الاندماج بين هؤلاء الروس والسكان المسلمين .

وقد احترم الروس الانظمة المحلية والطقوس الدينية والعادات والتقاليد الاسلامية فى هذه البلاد ، وكان من نتيجة ذلك أن تقرب كبار ملاك الاراضى من الهيئة الحاكمة ايام القياصرة فى بطرسبرج فأوفدوا ابناءهم للخدمة فى الجيش ليضمنوا بقاء ثرواتهم وضياعهم الضخمة فى أيديهم .

وفى أوائل عهد الثورة الروسية لم يجد البلشفيك سبيلا للابقاء على الانظمة الا عن طريق استخدام القوة . وما زال الرجال الطاعنون فى السن يذكرون هذه الفترة الرهيبة وما اقترنت به من مصادرات للارزاق ومجاعات اخذت بخناق السكان ، واستمرت هذه الفترة طوال عشر سنوات ما بين ١٩٢٨ – ١٩٣٨ تتسم بطابع من العنف ، فكم من زعيم دينى او اقطاعى اختفى من عالم الوجود ، اما فى معاقل سيبيريا واما بالاعدام .

وعندئذ اصيبت الديانة الاسلامية فى الصميم ، شأنها فى ذلك شأن بقية الديانات الاخرى ، ثم ما لبث الحال ان تغير بعد ذلك فقد لجأ الروس الى وسائل اخرى اقل ارهابا وامضى!

وكانت النتيجة ان اصبحت الاراضى الاسلامية التى كانت حراما على الاجانب لا يستطيعون دخولها الا بعد جهد ، اصبحت هذه الاراضى محل تفاخر الروس وزهوهم ، فما لبثوا أن اتخذوا منها نموذجا يعرضونه على المراقبين الاجانب ويتباهون بما وصلوا اليه من نتائج فيها .

ترجمة احمد طلعت